الفصل الخامس

الطريقة الشاذلية في السودان الشرقي

نهلة أحمد عبد الباقي أحمد

ماجستير في التاريخ الإسلامي، مدرِّسة وباحثة في التاريخ الإسلامي، جامعة النيلين، السودان.

nahlaa125@gmail.com

المقدمة:

اختلفت التسميات التي أطلقت على البلاد الواقعة جنوب مصر والتي تعرف «السودان» فقد سميت تارة «أثيوبيا» وأخرى «كوش». ولم يكن لفظ «السودان» معروفاً، أو مستخدماً قبل التوسع العربي في تلك المناطق، وبعد انتشار القبائل العربية في مساحات واسعة من الأراضي الإفريقية. فالسودان يعني «السود» وأطلقه العرب على الممالك الإفريقية الإسلامية الواقعة في المنطقة التي تقع إلى الجنوب من الصحراء الكبرى.[١]

وقصد علماء الجغرافية من إطلاقهم مصطلح السودان الشرقي الإطار الجغرافي الذي يقع مداه من إقليم دارفور غرباً وحتى ساحل البحر الأحمر شرقاً والمحيط الأطلنطي غرباً، وبين الصحراء الكبرى في الشمال والغابات المدارية في الجنوب[٢] ومنطقة القرن الإفريقي شرقاً.

أولاً: الوجود الصوفي في السودان

بعد أن فتح المسلمون مصر بقيادة عمرو بن العاص (٢٠-٢١هـ /٦٤٠-٦٤١م)[٣] بدأ دخول الإسلام في السودان عقب المعاهدة التي وقعها عبد الله بن أبي السرح مع ممالك النوبة المسيحية والتي عرفت باتفاقية «البقط» أو «كتاب البقط»، وهو أشبه ما يكون باتفاق حسن جوار وعدم الاعتداء،[٤] وبذلك أراد عبد الله ابن أبي السرح تأمين حدود مصر الجنوبية بعد أن أصبحت تابعة للدولة الإسلامية، وتضمنت هذه الاتفاقية أن يسمح ملك النوبة ببناء مسجد في المنطقة يشرف على نظافته وتكريمه ولا يمنع عنه المصلين، إضافة إلى دفع جزية سنوية من رقيق النوبة إلى المسلمين، وأن يدخل رعايا كل طرف بلد الطرف الآخر، وترتب على ذلك نوع من التعايش السلمي بين العرب والنوبة. وكان للعرب صِلات قديمة ببلاد النوبة تمثلت في المعاملات التجارية. وازداد عدد العرب الوافدين إلى المنطقة بعد هذه المعاهدة وتسرب نفوذهم بين الأهالي، وبدأ التزاوج بينهم وبين النوبة، فأتاح هذا لهم الاستقرار وامتلاك الأراضي.

وانتشر الإسلام في المنطقة كنتيجة طبيعية لاختلاط العرب الوافدين بأهل البلاد الأصليين، فأدى إلى انتشار اللغة العربية والثقافة العربية في المنطقة، وتوغل العرب إلى داخل البلاد بحثاً عن المراعي ومناطق الزراعة، وازداد عددهم وتمازجهم مع النوبة، مما أدى إلى قيام أول دولة مسلمة وهي دولة الفونج، وكذلك مملكة أخرى في دارفور[٥]

وقد وجدت الطرق الصوفية رواجاً في البيئات والمجتمعات البسيطة، حيث تكون الفطرة خالية من الانغماس في الحياة المادية بكل ضروبها، ومن هنا وجدت بين المجتمعات الإفريقية رواجاً منقطع النظير،حيث وجد المريدون في شيخ الطريقة إماماً مزوَّداً بقوى علوية ينفرد بالكرامات ومعرفة الأسرار.[٦] ويعود دخول الطرق الصوفية إلى بلاد السودان الشرقي إلى القرنين السادس والسابع الهجريين، والثاني عشر والثالث عشر الميلاديين.

وتعد الطريقة القادرية، طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني من أقدم الطرق التي دخلت شرقي إفريقية مع التجار والمهاجرين اليمنيين والحضارمة وانتشرت هذه الطريقة في المدن الساحلية كمصوع،[٧] وزيلع،[٨] ومقديشو،[٩] وفي كثير من المناطق الأخرى.[١٠]

وإلى جانبها انتشرت الطريقة الشاذلية؛ طريقة

الشيخ أبو الحسن الشاذلي، و هي من أبرز الطرق الصوفية التي نشأت وتطورت في تلك الفترة.

وفي السودان قامت كثير من الممالك الإسلامية؛ وأضحت الطرق الصوفية تشكل محور الحياة الدينية لغالبية السكان. وكانت لليمن صِلات ثقافية واقتصادية وسياسية بمسلمي الحبشة وشرقي إفريقية ومنها هاجر المتصوفة والمسلمون إلى شرقي إفريقية، وأصبح لهم أتباع ومريدون،[١١] وبهذا فإن الطرق الصوفية عرفت طريقها إلى شرقي إفريقيا بعامه والحبشة بخاصة قبل القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، حيث انتشرت الطرق الصوفية في شرقي إفريقية انتشاراً واسعاً.[١٢]

وبدأت هذه الطرق تدخل في بلاد السودان بعد سقوط مملكة علوة المسيحية، وفي ظل مملكة سنار تسارع نموها وتطورت حتى تمكنت من السيطرة على الحياة الدينية في عموم البلاد، وربما يرجع ذلك إلى المكانة التي كان يجدها مشايخ الطرق الصوفية من سلاطين مملكة سنار والاعتقادات التي كانوا يعتقدونها فيهم، إلى درجة أنهم قربوهم إليهم وجعلوهم الواسطة بينهم وبين المواطنين، وأسندوا إليهم بعض المناصب وأهدوا إليهم الهدايا.[١٣]

ومن المؤكد أن كثيراً من العرب المهاجرين قبل عصر الفونج هاجروا إلى السودان وهم يحملون معهم طرقهم الصوفية، وبعضهم أو كثير منهم كان منتمياً إلى بعض الطوائف الجيلانية أو الشاذلية، وكانت الظروف السياسية هي التي ألجأتهم للفرار بحياتهم وأفكارهم، فجاؤا إلى السودان من الحجاز والعراق وشمال إفريقيا بالذات يوم آلت كلها إلى حكم الفاطميين الشيعة، فأصبح السودان أرضاً خصبة لنشر هذه الدعوة الجديدة من قوم أصابتهم جراحات السياسة، فجنحوا إلى الزهد والتصوف في مناخ يتنفس زهداً وتصوفاً.

وبذلك حدث تحول كبير في شكل الدولة التي أصبحت ذات سمات إسلامية واتصلت بالعالم الإسلامي وصارت جزءاً منه، ووفد إليها علماء الدين الذين أرادوا نشر الدين الإسلامي وتحفيظ القرآن، وبالتالي ساعد انتشار الصوفية على نشر الإسلام وتعاليمه في شرق البلاد وغربها.

امتازت الطرق الصوفية بالأسلوب السهل المبسط الذي يتوافق ومستوى المتلقين بتعاليمها نسبة لمحدودية فكرهم وثقافتهم وقلة المتعلمين بينهم، ووجدت هذه الطرق قبولاً وانتشاراً بين أتباعها بمختلف لهجاتهم وأجناسهم وقبائلهم، وشاع التصوف في السودان شيوعاً عظيماً.[١٤]

ولهذا عد بعض المؤرخين السودان بلد التصوف؛ إذ يتسم الإسلام في هذا البلد بصيغة صوفية خاصة، فالأذكار والمدائح تتردد في الشوارع والمطاعم والمحال ووسائل المواصلات.

ارتبط تاريخ انتشار الإسلام في السودان بالطرق الصوفية المختلفة، فالسودان عرف باهتماماته العلمية والروحية، فالتفت حولهم الجماعات واندمجوا مع القبائل، وصهروا مجتمعاتهم من خلال منهجهم التربوي الصوفي بتزكية النفوس وغرس الفضائل، فأقاموا صروح القرآن وأسسوا المساجد ودور العلم محدثين أثراً قوياً على نطاق السودان عن طريق سلوكهم وصفاء دعوتهم التي تتصل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغرسهم لفضائل الأعمال وتفانيهم في خدمة المستضعفين وإصلاحهم للذات الانسانية، وسعوا بالتكافل الاجتماعي، ودعموا شرائح المجتمع المقيمين معهم والعابرين عليهم، حتى أضحى ذلك رصيداً أخلاقياً لمجتمع الصوفية.[١٥]

مارس الصوفية أدوارهم وتحملوا واجب نشر الإسلام في مناطق إفريقيا وفي السودان بناءً على فلسفة التعاهد والتواثق والبيعة في الطريقة الصوفية، التي يتعهد فيها الناشئ والمبتدئ على تقوى الله والعمل على الدعوة والتبشير بمنهجه وقيمه. ويصعب على الصوفي بل يستحيل عليه البتة أن يدعو إلى الطريقة الصوفية إذا لم يكن هو نفسه تلقاها على يد شيخ معروف، وهو- أي الشيخ- أخذ عن آخر، فيما عرف عند الصوفية بسلسلة النسب الصوفي، وهي غاية في الأهمية عند الصوفية، فهي من وجهة نظرهم توضح طبيعة المدرسة التي تلقى فيها المتلقي التصوف ومظاهرها، بالإضافة إلى مصدر معرفته وتلقيه العلوم التي يأخذها عن شيخه.[١٦]

يبلغ عدد الطرق الصوفية في السودان حوالي أربعين طريقة أساسية وفرعية، أشهرها:

- القادرية بفروعها المتعددة. وانتشرت القادرية في بلاد السودان الغربي في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، وتعرف هذه الطريقة بالبكائية نسبة إلى ابن الشيخ محمد المعروف بأحمد البكاي (توفي ٩١٠هـ -١٥٠٤م) وانتشرت الطريقة القادرية في حوض النيجر وبلاد الهوسا،[١٧] وقامت في تلك المناطق بعض المراكز لنشر الطريقة في بلاد السنغال،[١٨] وارتبط انتشار القادرية في السودان الأوسط بتاج الدين البهاري (توفي ٩٨٥هـ -١٤٧٧م) الذي قدم من بغداد عن طريق الحجاز.[١٩]
- السمانية: هي من الطرق التي دخلت بلاد السودان عن طريق الشيخ أحمد الطيب بن البشير وانتشرت شمال أم درمان في السودان، سنة ١٨٠٠م ولقيت هذه الطريقة قبولاً بين بعض القبائل في مناطق النيل الأبيض.[٢٠]
- الطريقة الراشدية: وهي فرع من الإدريسية، ومؤسسها إبراهيم الراشد، وينتمي إلى عائلة أحمد الراشدي (توفي ١٥٢٤م) المؤسس الأصلي للطريقة في الجزائر، وانتشرت الطريقة الراشدية في الهند وأرتيريا والصومال والحجاز والسودان.[٢١]
- الطريقة الرفاعية: ومؤسسها أبو العباس أحمد بن أبي الحسن الرفاعي (توفي ٥١٢هـ -١١١٨م) والمتوفى عام ٥٨٧هـ -١١٨٢م، وكان أول ظهورها في العراق٥١٢هـ، ثم دخلت مصر على يد أبو الفتح الواسطي عندما وفد إليها في مستهل القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، من العراق وأقام في الإسكندرية وبشّر بها.[٢٢] وانتشرت في كثير من المناطق الإسلامية. والمجذوبية، وهي فرع من الشاذلية كما يرد ذكرها لاحقاً.

وقد أصبحت الطرق الصوفية في السودان في الفترة الأخيرة انشطارية، وتحولت إلى فرق إقليمية وقبلية بعدما كانت قومية، حيث يخترق رجال الصوفية التنظيم القبلي، وينشئون تنظيماً اجتماعياً أوسع.

ثانياً: نشأة الشاذلية

الشاذلية من الطرق الصوفية التي تفرعت عن الطرق الكبرى في القارة الإفريقية، وهي مدرسة للمبادئ الصوفية أكثر منها طريقة منظمة.

ويرجع تأسيسها إلى الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي،[٢٣] ويتصل نسبه بعلي ابن أبي طالب (رضي الله عنه). ولد الشاذلي في عام ٥٩٣هـ/١١٩٦-١١٩٧م في منطقة شاذلة قرب جبل زفران في تونس، وتلقى تعاليمه الأولى في مدينة فاس بالمغرب، وقد تأثر بالمدرسة الإشراقية للتصوف، فاشتغل بالعلوم الشرعية حتى أتقنها وصار يناظر عليها، وسلك منهاج التصوف واجتهد فيه حتى ظهر صلاحه وخيره،[٢٤] وفي رواية ود ضيف في كتاب الطبقات يشير إلى أن الطريقة الشاذلية دخلت السودان قبل قيام مملكة الفونج ولكن الروايات لم تفصح عن مصيرهم،[٢٥] ورواية أخرى تشير إلى أن طريقته انتشرت في مراكش في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، على يد أبي عبدالله محمد بن سليمان الجزولي[٢٦] وانضم إليه عدد كبير من الناس، وهذا جعله مثار حقد الطبقة الحاكمة، وقدم فعلاً للمحاكمة بسبب آرائه وأفكاره فاضطر إلى الهروب إلى مصر حيث ذاع صيته وحقق شهرة كبيرة بين عامة المصريين وطبقة العلماء، ودأب على التوجه إلى مكة سنوياً لأداء فريضة الحج وتوفي في أثناء العودة من رحلة الحج في العام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م.[٢٧]

ثالثاً: المساهمات الفكرية للطريقة الشاذلية

١- مساهمات أبي الحسن الشاذلي:

أول ما يلفت النظر في شخصية أبي الحسن الشاذلي هو غزارة علمه، وسعة معارفه، فقد كان عالماً عارفاً بالعلوم الظاهرة جامعاً لدقائق فنونها من حديث وتفسير، وفقه، وأصول ونحو وتصريف، ولغة، وحكمة وأَدب، فقد أكسبتة سعة معارفه استقلالاً في الرأي وحرية في الفكر مكنته من أن يجدد الإسلام في جوانبه الروحية، وأن يزيل ما علِق بالتصوف من غبار الفلسفة،[٢٨] ويتضح ذلك من إخلاصه إلى دعوته وجهاده في توصيلها إلى الناس.

وعلى الرغم من أن أبي الحسن كان واسع العلم كثير المعرفة، إلا أنه لم يخلّف كتباً، إنما هنالك آثار علمية من الأقوال والحكم والوصايا والأدعية، ومن أقواله المأثورة

عنه في التصوف،[٢٩] قوله في مفهوم التصوف: "التصوف تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبية"، وقال رحمة الله عليه: "للصوفي أربع صفات: التخلق بأخلاق الله، وحسن الموازرة لأوامر الله، وترك الانتصار حياء من الله، وملازمة البساط بصدق الفناء مع الله".[٣٠] وفي كلامه عن الزهد قال: "حقيقة الزهد فراغ القلب مما سوى الرب".

وقال رحمة الله عليه: "قوة النفس بالعلم والمعرفة والاقتداء بالكتاب والسنة". ومن كلامه في جهاد النفس: "مراكز النفس أربعة، مركز الشهوة في المخالفات، ومركز الشهوة في الطاعات، ومركز الميل إلى الدرجات، ومركز العجز في أداء المفروضات".[٣١] وقال: "اتخذ الطهارة والصوم والصلاة والصبر والذكر وتلاوة القرآن والتبري من الحول والقوة سلاحاً تكن سالماً، وعليك بالتوحيد والإيمان والمعرفة والمحبة لله، تلك هي أقوال شريفة تفيد في معان جليلة ومعارف دقيقة، أساسها الكتاب والسنة وغايتها التربية السلوكية المستقيمة".[٣٢]

وبجانب ذلك كانت له الكثير من الأحزاب التي كان يدرِّسها ويتولى تحفيظها لمريديه وأوصاهم بها، وهي مجموعة من الأدعية والأوراد التي تقرأ في أوقات مختلفة بعد الصلوات، ومنها حزب البحر والحزب الكبير وحزب مسمى بحزب أبي الحسن الشاذلي، وحزب النور والنصر،[٣٣] وغيرها مما ذكر من الأحزاب الأخرى التي يطول تفصيلها.

لم يطلب الشيخ أبو الحسن الشاذلي من أتباعه نظاماً خاصاً أو أوراداً معينة، وكان أصحاب الطريقة يمارسونها بشكل عادي، و لم تتخذ هذه الطريقة النظام الوراثي، ولهذا كان شيوخ الطريقة يمارسون العمل في الدعوة، وكانوا يحرصون على حضور مجلس أبي الحسن الشاذلي والارتواء من منهله الروحي.[٣٤]

وبهذا الأسلوب التربوي أنشأ أبو الحسن الشاذلي جيلاً من الصوفية الصادقين لم يكن بينهم مترهب، وإنما كانوا إخوة في الله، و لم يكن لأحدهم شطحات ولا تجاوزات تؤخذ عليهم، وإنما كانوا يحافظون على سلوكهم الديني من أن تشوبه شائبة.[٣٥]

٢- الشيخ أبو العباس المرسي:

تولى أمر الطريقة بعد وفاة أبو الحسن الشاذلي، وذلك عندما بلغ أبو العباس الدرجة الروحية أعلمه أبو الحسن الشاذلي أنه خليفته، وعليه أن يقوم بتربية المريدين.[٣٦] وأحس أبو العباس بجسامة المسؤولية وأن عليه أن يعمل على بسط سلطان الطريقة في أرض جديدة، ويقدس واجباتها، وأن يعقد حلقات العلم، وإضافة إلى ذلك فعليه أن يعمل على إزالة العوائق التي يقيمها المنافقون لصد الناس عن الطريقة وثنيهم عن نورها.[٣٧] إلا أن بعض الشيوخ كان ينفصل ويشكل فروعاً أخرى مثل الشيخية والطيبية والجازولية والدرقاوية.[٣٨] وهذا هو السبب في وجود الشاذلية في معظم أنحاء العالم الإسلامي بوصفها طريقة محلية.

ولقد انتشرت تعاليم هذه الطريقة في أجزاء القارة الإفريقية، وعلى وجه خاص في سودان وادي النيل، من خلال رحلات الحج التي كانت تمر بهذه البلاد. ويبدو أن الشاذلية في السودان وصلت قبل القادرية. وكان انتشارها في السودان صنيع عدد من الأفراد المستقلين، وأصبحت تعاليمها أكثر انتشاراً من تعاليم القادرية.

وتأسست المدارس الشاذلية في بعض المناطق مثل المدرسة الشاذلية في المغرب التي أسسها أبو الحسن الشاذلي بقرية عماره في بلاد المغرب سنة(٩٥٣هـ) وتتلمذ عليها كبار الفقهاء في المغرب.

لقد مثلت الشاذلية في السودان بعدد من الفروع المستقلة، لكل منها سند مميز وسلسلة والعلاقة ضئيلة بين كل فرع والآخر، ووفقاً للطبقات، فإنها أول طريقة دخلت السودان؛ وأدخلها شريف يدعى حمد أبو دنانه استقر في غرب سقادي، إلى الغرب من المحمية الحالية — غربي شندي وعرف أبو دنانه بأنه صهر أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي، وهو داعية للجزولية - الشاذلية في المغرب، ووفقاً لرواية العركيين، فإن أسلافهم كانوا مريدين للشاذلية قبل القادرية. ومع انتفاء وجود دليل مدون يدعم الروايات المذكورة إلا أن مبادئ الشاذلية كانت مألوفة في السودان قبل دخول القادرية خلال القرن السادس عشر الميلادي. ويمكن دعم هذا القول برواية مبكرة ومكتوبة تؤكد أن أبا الحسن

الشاذلي توفي ودفن في حميترة بالقرب من عيذاب على بعد اثني عشر ميلاً من حلايب في شرق السودان. وكانت عيذاب في فترة ازدهارها من أكثر الموانئ أهمية في العالم العربي، فقد مثلت الميناء الرئيسي للحجيج من إفريقيا، ومنها كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي يؤدي الحج سنوياً ويلقي دروسه العامة في عيذاب، ويمكن افتراض أن هذه المحاضرات حضرها حجاج من الإقليم الذي أصبح إقليم الشايقية مستقبلاً، وقام هؤلاء بدورهم في نشر أفكارهم وتعاليمهم بين بني جلدتهم.

٣- شيخ خوجلي:

كان خوجلي بن عبد الرحمن بن إبراهيم (توفي ١١١٥هـ/١٧٤٣م) أول من قام بنشر الشاذلية في فترة سلطنة الفونج. وهو من أصل محسي.[٣٩] ودرس إبراهيم جد خوجلي في منطقة الشايقية. ولد خوجلي في جزيرة توتي وبدأ تعليمه في مدرسة الفقيرة بنت القدال القرآنية، وفيها درس العلوم الدينية والصوفية عند أرباب ابن علي (توفي ١٠٢هـ/١٦٩م). كان الشيخ خوجلي في الأصل من أتباع القادرية، ولا تعرف الظروف التي أدت إلى تحوله للطريقة الشاذلية، وسلك الناصرية وتتلمذ على يد محمد النصري الشاذلي، برز دوره عندما عاد من الحجاز وبدأ في نشر تعاليم الناصرية وزعم أن قواعد السلوك الشخصي في طريقته يرجع أصله إلى الشاذلية. ويبدو أنه تبنى هذا الاتجاه لكسب أتباع دون أن يستهدف القادرية. مارس شيخ خوجلي قدراً معتبراً من النفوذ، ونجح قبل وفاته في جذب عدد من الأتباع.[٤٠]

والمجذوبية فرع آخر للناصرية الشاذلية في السودان، بدأت طريقة محلية أوجدها حمد بن محمد المجذوب (١٦٩٣-١٧٧٦م)[٤١] في بداية القرن الثامن عشر في الدامر في شمال السودان. وحقق الشيخ حمد المجذوب شهرة عظيمة في الدامر، وبعد وفاتة كانت الطريقة قد استقرت في السودان وتمكن أحد أحفاده وهو محمد المجذوب الصغير (١٧٩٦-١٨٣٢م) من أن يوطد دعائم الطريقة، وأن يقاوم التوسع المصري في السودان[٤٢] وواصلت أسرة المجاذيب حتى وفاة المجذوب الكبير، فانشق حمد بن محمد المجذوب الكبير عن طريق أجداده وانضم إلى الشاذلية، وواصلت المجذوبية والناصرية والشاذلية ازدهارها.

جلب آخرون الشاذلية إلى السودان مثل عبد الله الشريف الذي ولد في فاس بالمغرب. وأدخله إلى الناصرية-الشاذلية محمد أو(أحمد) بن الناصر، وجاء للاستقرار في حلفاية الملوك، ولم تتمثل الشاذلية في منطقة الشايقية كتنظيم له أتباع. ومثلت في الواقع في شكل تعاليم وأوراد مثل دلائل الخيرات للجزولي.

وللطريقة الشاذلية عدة فروع عرفت في كثير من المناطق في شرقي إفريقية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: الطريقة العفيفية الإدريسية نسبة إلى إدريس المغربي. المدنية الشاذلية بالمدينة المنورة، الجوهرية بالقاهرة، التهامية الشاذلية بالمغرب الأقصى. العروسية الشاذلية بتونس. والطريقة السلامية الشاذلية بطرابلس.[٤٣]

رابعاً: الرؤى والأفكار الإصلاحية والتجديدية في الطريقة الشاذلية

إن المكانة المرموقة التي أحرزها أبو الحسن الشاذلي في عصره، نبعت من التأثير العميق الذي خلفه في أهل زمانه،[٤٤] فقد جاهد أبو الحسن الشاذلي في الدعوة إلى الله أكثر من ثلث قرن في بيئة كثرت فيها الوشايات والفتن، ولم يوهن ذلك من إرادته. وبالرغم من ذلك استطاع أبو الحسن الشاذلي إنـزال التصوف إلى مستوى العامة، وكانت الأمة بحاجة إلى داعية ينـزل بالتصوف إلى واقع الناس المعاش ويقربه إلى سلوكهم اليومي، ويزيل الفتنة، ويبعث في جسد المجتمع الإسلامي روحاً جديدة من النشاط والحيوية، فعمل جهده على تقوية صلة الكثيرين بالله، وتذكيرهم بالآخرة، وتوجيههم إلى السعي في تهذيب أنفسهم للوصول إلى مقام الإحسان.[٤٥]

ولذلك أقبل الناس على دعوته يتلقون الهداية والإرشاد. ولعل ذلك كان من مآثر الشاذلي التجديديه، وهي تجديده في جانب إيمان الأمة، وعنايته وتركيزه على صياغة إنسان جديد،لأن الإنسان هو اللبنة الأساسية في أي إصلاح فعّال.[٤٦]

واستناداً إلىٰ ماسبق نلاحظ الصبغة العملية في التجديد الشاذلي بارزة، فقد كان شديد الصلة بحياة الناس، مما جعله ينـزل بالتصوف من الخوانق والزوايا إلىٰ حياة الجِد والكفاح، و لم يمنعه التصوف من إسداء المعروف إلىٰ جميع الناس.(٤٧)

بفضل هذا الأسلوب الذي اتخذه الشاذلي والذي يعتمد علىٰ العمل أساساً، أوقف انـزلاق الكثيرين من المتصوفة إلىٰ حياة الرهبنة التي نهىٰ عنها الإسلام.(٤٨)

ولذلك جاء التجديد الشاذلي معبراً عن واقع المجتمع الذي ظهر فيه، ومستجيباً لمتطلبات الحياة كما يسير مع الكتاب والسنة. وكان الشاذلي يريد نشر التصوف السني العملي بين جميع فئات المجتمع، وأن يعمل علىٰ حفظ التوازن بين القضاء والدين؛ إذ إن الصوفي حسب النظرة الشاذلية ليس ممن تثبت له العصمة بل يجوز عليه الخطأ والنسيان، ولقد كان لهذا الأسلوب الشاذلي الأثر الكبير في نجاح دعوته.(٤٩) ونجد أن أبا الحسن الشاذلي قد ابتعد عن التصوف الفلسفي الذي كان سائداً في عصره، والتصوف عند الشاذلي يشمل جميع مرافق الحياة ولا يمنع من تعاطي أسبابها، فقد أراد الشاذلي نشر التصوف علىٰ أوسع نطاق بين أفراد المجتمع.(٥٠)

ويجب أن نشير إلىٰ السمة الإنسانية التي امتازت بها الدعوة الشاذلية، فقد كان الشاذلي متفطناً لحاجة المسلمين إلىٰ الوحدة ونبذ الفرقة التي يغذيها التعصب والتحزب، وبهذا الوعي وبعد النظرة استطاع الشاذلي أن يقضي علىٰ التعصب الأعمىٰ وما ينشأ عنه من عداوات،(٥١) وتمتاز دعوة الشاذلي في صميمها بالحرية في أعلىٰ مستوياتها، وهي في نظره تتمثل في صدق العبودية لله عندما يتخلص المرء من أشياء الدنيا فتتحرر بذلك روحه من جميع الشوائب المضللة. ولاشك في أن هذا معنىٰ رفيع للحرية الإنسانية، وبهذه المواقف والنظرات العميقة في التصوف ومقاصد الشريعة نستطيع أن ندرك أهمية التجديد الشاذلي، وأن نظرة أبي الحسن الشاذلي لم تقتصر في محاولة تطهير التصوف من الأفكار الغريبة والانحرافات الضارة، وإنما يقدم البرهان الساطع علىٰ أن الصوفية أهل عمل، ويرد بذلك علىٰ الذين يظنون التصوف دروشة ونشوة وانجذاب، ففتح بذلك باب تجديد العمل الديني.(٥٢)

ومما يلاحظ أن منهجية المدرسة الشاذلية كانت قائمة علىٰ إصلاح الفكر الصوفي التي جاءت معبرة عن واقع المجتمع الاسلامي الذي سئم الاضطرابات السياسية والاجتماعية، ومنهجيته يمكن أن يقال عنها إنها قدمت حلولاً جذرية بالنظر إلىٰ المحيط الذي سبق ظهور الدعوة الشاذلية.(٥٣)

خامساً: سمات المدرسة الشاذلية

١- ابتعاد الشاذلية عن التصوف الفلسفي ونظرياته.
٢- عدم اهتمام المدرسة الشاذلية بالكرامات وخوارق العادات.
٣- محاربة الشاذلية للمعاني السطحية للزهد والتقشف والتوكل، فقد بين الشاذلي أن إصلاح الباطن لا يتناقض مع إصلاح الظاهر.
٤- دعوة الشاذلية إلىٰ الجمع بين الشريعة والحقيقة، وبهذا أزال العداء التقليدي بين الفقهاء والصوفية.(٥٣)
٥- أظهرت المدرسة الشاذلية قيمة الحرية الإنسانية، التي تتمثل في صدق العبودية لله، عندما يتخلص المرء من شهوات الدنيا.
٦- حوّلت قضايا علم العقيدة من مثل أفعال العباد إلىٰ حقائق صوفية ذوقية، بدلاً من أن تكون قضية عقلية جافة.(٥٥)

يتضح لنا توسع الطريقة الشاذلية كثيراً من مناطق القارة الإفريقية، فأسهمت في نشر الإسلام والعلوم الدينية في شرقي إفريقية من خلال إنشاء المدارس والزوايا، التي خرَّجت الكثير من الدعاة الذين كان يتم إرسالهم إلىٰ مراكز العلم ومساجده مثل الحرمين الشريفين، والأزهر، وإلىٰ الجامع الأموي في دمشق، والقيروان، وفاس وغيرها، وكانت الطرق الصوفية ترسل الدعاة إلىٰ جميع الجهات لينشروا الإسلام ومبادئ الطريقة وتعاليمها.

وكان أصحاب الطرق يقومون بأداء شعائرها في حلقات الذكر وألوان من العبادة والتبتل، بالاضافة

إلى الأوراد المتبعة في الطريقة بطريقة تجذب القلوب إلى الإسلام، وأدت الطريقة إلى جذب الأفارقة إلى الإسلام، واستولى على قلوبهم وعقولهم، وأصبحوا له دعاة مخلصين للطريقة.(٥٦)

الخاتمة:

بالرغم من أن مذاهب الطرق الصوفية كانت منتشرة في السودان بخاصة، واستقر شيوخها في مناطق متعددة في السودان إلا أنهم فشلوا في كسب مواطئ قدم في منطقة شمال السودان كمؤسسات منظمة. فأسباب ذلك تعود إلى التغيير التدريجي في طبيعية الإسلام في منطقة شمال السودان، التي تحتاج إلى أن ينظر إليها في سياق الأحوال الاقتصادية والسياسية في المنطقة. ومن خلال مبادئ هذه الطرق، لم يشجع عدم الاستقرار السياسي والحروب، شيوخ الصوفية لزيارة تلك المناطق لتجنيد أتباع لهم. ومهما كان الأمر، فإن انتفاضة الشايقية كانت عاملاً مساعداً في تدفق الطرق الصوفية إلى مناطق أخرى في إفريقية، فقد تسبب التدهور الاقتصادي في المنطقة إلى قفل بعض مراكز العلم المقامة وهجرة العلماء؛ فاتحة الطريق بذلك للآخرين.

ومن هذه الدراسة اتضح منهج الشاذلي الصوفي التجديدي، الذي يوصل الصوفي إلى معرفة الله. ومن مميزات هذا المنهج سهولته ويسره وواقعيته، بالإضافة إلى أن المنهج مستمد من الشريعة الإسلامية. وبهذا يمكن القول إن الطريقة الشاذلية في السودان انتشرت بانتشار المبادئ الواقعية لدعاتها، وقد برزت هذه الواقعية عندهم في الإطار الواسع للتصوف، وفي آراء الشاذلي التي جاءت من أجل الإصلاح الفكري وعبرت عن واقع المجتمع الاسلامي.

وحملة دعاة الشاذلية في السودان لم يتسع نطاقهم في كل المناطق. ومع الحاجة الماسة لتلك المبادئ الواقعية، إلا أنها لم تشمل كل المناطق، نظراً إلى عدم وجود سلسلة دعوية لتلك الطريقة في السودان الحالي بحدوده الجغرافية الحالية.

وانتقلت الطريقة في مناطق متعدده في إفريقية، فقد انتقل ابو الحسن الشاذلي من تونس إلى مصر ماراً بطرابلس، وفي الديار المصرية رحب به الكثيرون من أتباعه، وازدهرت الطريقة الشاذلية في مصر فقد انضوى تحت لوائها العلماء والفقهاء والمحدثون، وكانوا يحرصون على مجلس أبي الحسن الشاذلي، وعلى قراءة الأحزاب والأوراد، وكان في تربيته للمريدين يطهرهم بماء الحكمة وصدق المعاني ووضوح الفكرة والدعوة إلى طاعة الله والعبادة الخالصة له.

المراجع

(١) النور، أحمد سمي. "تاريخ العلاقات السودانية—التشادية"، (رسالة ماجستير، جامعة الخرطوم، ١٩٩٧م)، ص٣.
(٢) خليفات، عوض محمد. مملكة ربيعة في وادي النيل من (القرن ٣هـ-٩هـ)، عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٣م، ص٥٥.
(٣) المرجع السابق، ص٥٦.
(٤) علي، تماضر أحمد. "الطريقة الختمية وأثرها في تاريخ السودان السياسي"، (ورقة بحثية غير منشورة، جامعة الخرطوم، ٢٠٠٠م)، ص٥.
(٥) النقيرة، محمد عبدالله. انتشار الإسلام في شرقي إفريقية ومناهضة الغرب له، الرياض: دار المريخ للنشر، ١٩٨٢م، ص١٥٥.
(٦) مصوع: مدينة بشرق السودان على ساحل البحر الاحمر.
(٧) زيلع: مدينة على ساحل البحر ناحية الحبشة، انظر:
- الحموي، ياقوت بن عبد الله. معجم البلدان، بيروت: دار صادر، ط٢، ١٩٩٥م، ج٣، ص١٦٤.
(٨) مقديشو: مدينة في أول بلاد الزنج في جنوب اليمن على ساحل البحر، انظر:
- الحموي، معجم البلدان، مرجع سابق، ج٥، ص١٧٣.
(٩) النقيرة، انتشار الإسلام في شرقي إفريقية ومناهضة الغرب له، مرجع سابق، ص١٦٠.
(١٠) المرجع السابق، ص١٥٦.
(١١) المرجع السابق، ص١٥٧.
(١٢) نبلوك، تيم. صراع السلطة والثورة في السودان، ترجمة: الفاتح التيجاني وآخرون، الخرطوم: دار الخرطوم للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٩٤م، ص٦.
(١٣) علي، الطريقة الختمية وأثرها في تاريخ السودان السياسي، مرجع سابق، ص ٦.
(١٤) مصطفى، جمال محمد. القباب والأضرحة في السودان، الخرطوم: منشورات الخرطوم عاصمة الثقافة العربية، دار التمدن للطباعة، ٢٠٠٤م، ص١٠.
(١٥) قريب الله، حسن الشيخ الفاتح. "فلسفة الصوفية في المبايعة والعهد"، مجلة الدراسات الإفريقية، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة الخرطوم العالمية، عدد٢٣، ٢٠٠٠م، ص٩٠.
(١٦) بلاد الهوسا: تقع بالقرب من نيجيريا الحالية.
(١٧) النقر، محمد حافظ. انتشار الإسلام في السودان الغربي والسودان الأوسط، ضمن: عمر، فاروق. المدخل الاسلامي دراسة تاريخية للمد الاسلامي منذ القرن الاول الهجري - السابع الميلادي حتى مطلع العصر الحديث، الأردن: منشورات جامعة آل البيت، ٢٠٠١م، ص٤١٢.
(١٨) ضيف الله، محمد النور. كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، تحقيق وتقديم: يوسف فضل حسن، السودان: شعبة أبحاث السودان، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، ١٩٨٥م، ط٣، ص١٠.
(١٩) المصطفى، خالد. أضواء على الطرق الصوفية في القارة الافريقية، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٠م، ص١٤٢.
(٢٠) المرجع السابق، ص١٤٣.
(٢١) النجار، عامر. الطرق الصوفية في مصر نشاطها ونظمها وروادها الرفاعي- الجيلاني- البدوي- الشاذلي- الدسوقي، القاهرة: دار المعارف، د.ت، ص٦٨.
(٢٢) عابدين، عبد المجيد. تاريخ الثقافة العربية في السودان منذ نشأتها الى العصر الحديث، الخرطوم: دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٥٣م، ص٦٧.
(٢٣) مراد، سعيد. الفرق والجماعات الدينية في الوطن العربي قديماً وحديثاً، القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٧م، ص٥٩.
(٢٤) ضيف الله، كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، مرجع سابق، ص١٠.
(٢٥) عابدين، تاريخ الثقافة العربية في السودان منذ نشأتها الى العصر الحديث، مرجع سابق، ص٦٧.
(٢٦) المصطفى، أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية، مرجع سابق، ص١٣٧.
(٢٧) فرحات، عبد الوهاب. أبو الحسن الشاذلي حياته ومدرسته في التصوف، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط١، ٢٠٠٣م، ص٦٧.
(٢٨) المرجع السابق، ص٧٥.
(٢٩) مراد، الفرق والجماعات الدينية في الوطن العربي قديماً وحديثاً، مرجع سابق، ص٥٩٣.
(٣٠) المرجع السابق، ص٥٦٥.
(٣١) المرجع السابق، ص٥٦٦.
(٣٢) فرحات، أبو الحسن الشاذلي حياته ومدرسته في التصوف، مرجع سابق، ص٧٨.

(٣٣) قنديل، عبد المنعم. أبو الحسن الشاذلي زعيم الحياة الروحية في القرن السادس عشر، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٩٣م، ص٨٠.
(٣٤) المرجع السابق، ص١٠٤.
(٣٥) قنديل، عبد المنعم. أبو العباس المرسي الخليفة الأول للطريقة الشاذلية، مصر: نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٩١م، ص٤٢.
(٣٦) المرجع السابق، ص٤٤.
(٣٧) الشيخية، والطيبية الجازولية والدرقاوية، وهي طرق صغيرة تفرعت من الطريقة الشاذلية وانتشرت في كثير من المناطق.
(٣٨) قاسم، عبدالحكيم عبد الغني. المذاهب الصوفية ومدارسها، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٨٩م، ص١٩٣.
(٣٩) المحسي، من القبائل السودانية التي تسكن في دنقلا شمال السودان.
(٤٠) المصطفى، أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية، مرجع سابق، ص١٤٠.
(٤١) المرجع السابق، ص١٤١.
(٤٢) مراد، الفرق والجماعات الدينية في الوطن العربي قديماً وحديثاً، مرجع سابق، ص٥٨٧.
(٤٣) فرحات، أبو الحسن الشاذلي حياته ومدرسته في التصوف، مرجع سابق، ص٦٧.
(٤٤) المرجع السابق، ص٩٨.
(٤٥) المرجع السابق، ص١٠٠.
(٤٦) المرجع السابق، ص ١٠٥.
(٤٧) المرجع السابق، ص ١٠٦.
(٤٨) المرجع السابق، ص ١٠٩.
(٤٩) المرجع السابق، ص١٢٦.
(٥٠) المرجع السابق، ص١٣٩.
(٥١) المرجع السابق، ص١٤٠.
(٥٢) المرجع السابق، ص٩٢٧.
(٥٣) المرجع السابق، ص٢٧٩.
(٥٤) المرجع السابق، ص٢٨١.
(٥٦) النقيرة، انتشار الإسلام في شرقي إفريقية ومناهضة الغرب له، مرجع سابق، ص١٥٨.
(٥٦) هذا هو الأصل في تسمية القبيلة التي انتسب إليها الشيخ، لكن المشهور هو التجاني والأقل شهرة التيجيني، ويلاحظ إدوارد دو نوفو أن التجيني تستعمل بكثرة في الغرب الجزائري، بينما التجاني تستعمل في الشرق، انظر:
- إدوارد دو نوفو. الإخوان: دراسة إثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر، ترجمة: كمال فيلالي، الجزائر: دار الهدى، د.ت، ص٧٧.